

سلسلة ابحاث في العقيدة

{٤}

التعريف بكتاب مدارج السالكين للابن القيم ومنهجه فيه

الظالم لنفسه - المقتصد - السابق بالخيرات

بقلم الباحث / محمد حمدى سيد صالح

(أبو عُمير محمد الحلوانى)

بسم الله الرحمن الرحيم

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستهديه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا من يهد الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له واشهد أن لا اله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمد عبده ورسوله اللهم صلي وسلم وبالك علي عبدك ونبيك محمد وعلي إليه وصحبه ومن صار علي نهجه إلي يوم الدين أما بعد عنوان البحث

مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين

عناصر المحاضرة

- ✔ المقدمة
- ✔ الظالم لنفسه فيه من ولاية الله بقدر إيمانه وتقواه
- ✔ من كان معه إيمان حقيقي فمعه من الإيمان بقدر أعماله
- ✔ إن أعمال القلوب ليست مرتبة كالمقامات في السير الحسي
- ✔ ترتيب المقامات ترتيب المشروط المتوقف علي شرطه
- ✔ الاختلاف في الصوفية في عدد المقامات وترتيبها
- ✔ التزام عقد الإسلام التزام بلوازمه الظاهرة والباطنة
- ✔ الفرق بين النعمة المطلقة ومطلق النعمة
- ✔ العلة في تقديم العبادة علي بالاستعانة
- ✔ الناس في العبادة والإستعانة أربعة أقسام
- ✔ لا يكون العبد متحققا بتوحيد العبودية إلا بأصلين عظيمين
- ✔ أهل مقام إياك نعبد لهم في أفضل العبادة وأنفعها أربع طرق

المقدمة

منهج العلامة بن القيم في فهم توحيد العبادة فاختار هذا العنوان وهو عنوان مبني علي القران بخلاف ما أقول أحوال ومقامات وهذه مصطلحات صوفية في الأصل والصحابة لا يعرفوا هذا الكلام إنما إياك نعبد وإياك نستعين فهذه سني محضة موجودة من ايام النبي يقرون الفاتحة فسمي كتابه مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ونحن سنأخذ تقريبا ما عرضه بن القيم في الجزء الأول من مدارج السالكين ففي الجزء الأول من الكتاب حول بن القيم أن يوضح منهج العبودية كما ينبغي معتمد علي كتاب الله وعلي سنة رسوله قبل أن يدخل في شرح منازل السائلين وهو في هذا الكتاب رد ردا مفحلوا علي منازل السائلين وهو لو كان استقل في شرح علي الكتاب والسنة من غير أن يشرح كلام الهروي لكان أفضل بس كان الكلام في هذا الوقت له وضع فكان يطلع مني الامام بن القيم علشان يرد علي الامام الهروي وكان يشرح كلامه ويرد عليه في كلامه وكذلك بن تيمية لما أرد أن يرد علي الاصفهاني فشرح العقيدة الاصفهانية ورد عليه فكتب بن تيمية كلام أقوي من الكلام التي كتبه الأصفهاني ونفس الكلام في مدارج السالكين كما سنري في محاضرة الليلة

فكان كلامنا كله تعقيبا علي التقسيم البدعي فننظر الي التقسيم السني ما ورد في القران والسنة وكيف حاول بن تيمية وتلميذه بن القيم أن يبرزا الجوانب الجيدة التي كان عليها الصحابة وعليها التابعون وعليها السلف

الزاهدون في الحياة كيف أنها أفضل بكثير مما هذه التقسيمات البدعي العقلي الذوقي وطريق اطلع منه

وادخل علي طريق ثاني ولا اصل الي الطريق الثاني الا بعد ان انتهي من الطريق الاولي

أعمال القلوب التي تسمى المقامات والأحوال وهي من أصول الايمان وقواعد الدين مثل محبة الله ورسوله والتوكل على الله وإخلاص الدين له والشكر له والصبر على حكمه والخوف منه والرجاء له وما يتبع ذلك[1]

هذه الأعمال جميعها واجبة على جميع الخلق المأمورين في الأصل باتفاق أئمة الدين والناس في هذا على ثلاث درجات كما هم في أعمال الأبدان على ثلاث درجات

١- ظالم لنفسه

٢- ومقتصد

٣- وسابق بالخيرات

فالظالم لنفسه العاصي بترك مأمور وفعل محظور

وليس بترك كل المأمور ولكن بعض المأمور هذا ظالم لنفسه

والمقتصد المؤدي الواجبات والتارك المحرمات

فالذي يفعل الوجبات ويترك المحرمات يقال له مقتصد لاحظ هنا أن تقسيم بن القيم تقسيم نقلي معتمد علي

القران والسنة وليس علي عقله

والسابق بالخيرات المتقرب بما يقدر عليه من واجب ومسنون والتارك للمحرم والمكروه

---

[1] - التحفة العراقية في الأعمال القلبية لأبن تيمية صـــ ٣٧

وليس أنه مقتصد أو سابق بالخيرات أنه يبقي معصوم كما أن الشيعة دعوا للائمتهم والصوفية للعارفين عند هم

وإن كان كل من المقتصد والسابق قد تكون له ذنوب تمحى عنه بتوبة والله يحب التوابين ويحب المتطهرين إما بحسنات ماحية وإما بمصائب مفكرة وإما بغير ذلك

يعني ممكن يبقي عارف ويخطئ لأنه ليس معصوم لكن الصوفية قالوا لا مادام أنه عارف يبقي معصوم فجعلوا منزلة العارف بمنزلة الأنبياء حتى وصل بعضهم وتكلم عن ختم الأولياء والذي يتكلم عن ختم الولاية كالحكيم الترمذي تكلم علي أنه خاتم الأولياء وبن عربي تكلم علي أنه خاتم الأولياء وكل شيخ طريق يتكلم علي أنه يقول أنا خاتم الأولياء

وكل من الصنفين المقتصدين والسابقين من أولياء الله الذي ذكرهم في كتابه يونس فأولياء الله هم المؤمنون المتقون ولكن ذلك ينقسم إلى عام وهم المقتصدون وخاص وهم السابقون وإن كان السابقون هم أعلى درجات كالأنبياء والصديقين

فممكن يكون مقتصد ولي وسابق ولي لان القضية هنا متعلقة بالتقوى الباعث الذي دعا الي طاعة الحق سبحانه وتعالى لذلك قال الله تعالى

﴿ أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٦٢) الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ (٦٣) ﴾[٢]

[٢] - يونس

ونحن قلنا أن التقوى ربطها الله بالإحسان والإحسان قد يكون متعلق به المسلم وقد يكون متعلق به المؤمن

لكن درجة الولاية تختلف بحسب الطاعة

فأولياء الله هم المؤمنون المتقون ولكن ذلك ينقسم إلى عام وهم المقتصدون وخاص وهم السابقون وإن كان السابقون هم أعلى درجات كالأنبياء والصديقين

وحجة بن تيمية واضحة من القران

﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ (٣٢) ﴾[٣]

الظالم لنفسه فيه من ولاية الله بقدر إيمانه وتقواه

الظالم لنفسه فيه من ولاية الله بقدر إيمانه وتقواه هو ليس بكافر كأغلب العصا

وَأَمَّا الظَّالِمُ لِنَفْسِهِ مِنْ أَهْلِ الْإِيمَانِ : فَمَعَهُ مِنْ وِلَايَةِ اللَّهِ بِقَدْرِ إيمَانِهِ وَتَقْوَاهُ كَمَا مَعَهُ مِنْ ضِدِّ ذَلِكَ بِقَدْرِ فُجُورِهِ إذْ الشَّخْصُ الْوَاحِدُ قَدْ يَجْتَمِعُ فِيهِ الْحَسَنَاتُ الْمُقْتَضِيَةُ لِلثَّوَابِ وَالسَّيِّئَاتُ الْمُقْتَضِيَةُ لِلْعِقَابِ حَتَّى يُمْكِنَ أَنْ يُثَابَ وَيُعَاقَبَ وَهَذَا قَوْلُ جَمِيعِ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ وَأَئِمَّةِ الْإِسْلَامِ وَأَهْلِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ الَّذِينَ يَقُولُونَ : إنَّهُ لَا يُخَلَّدُ فِي النَّارِ مَنْ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ إيمَانٍ .

يعني الشخص الواحد ممكن يكون فيه إيمان وكفر

---

[٣] - فاطر

وَأَمَّا الْقَائِلُونَ بِالتَّخْلِيدِ : كَالْخَوَارِجِ وَالْمُعْتَزِلَةِ الْقَائِلِينَ إنَّهُ لَا يَخْرُجُ مِنْ النَّارِ مَنْ دَخَلَهَا مِنْ أَهْلِ الْقِبْلَةِ وَإِنَّهُ لَا شَفَاعَةَ لِلرَّسُولِ وَلَا لِغَيْرِهِ فِي أَهْلِ الْكَبَائِرِ لَا قَبْلَ دُخُولِ النَّارِ وَلَا بَعْدَهُ ؛ فَعِنْدَهُمْ لَا يَجْتَمِعُ فِي الشَّخْصِ الْوَاحِدِ ثَوَابٌ وَعِقَابٌ ؛ وَحَسَنَاتٌ وَسَيِّئَاتٌ . بَلْ مَنْ أُثِيبَ لَا يُعَاقَبُ وَمَنْ عُوقِبَ لَمْ يُثَبْ . [٤]

فالمسألة هنا أننا عبيد لله وممكن الشخص يكون في قلبه مثال محبة لله ٧٠% ولغير الله ٣٠% الإخلاص ممكن ٦٠% لله و٤٠% لغير الله فهذا أساس أن في حسنات وسيئات هم يقولون لا إما في الجنة وإما في النار ففي أحاديث تدل علي أن ممكن للناس تقع في السيئات لكن الخوارج قالوا لا هو في النار لكن هنا بن القيم قال

وما دل عليه الكتاب والسنة وإجماع الأمة أن الرجل قد يجتمع فيه كفر وإيمان وشرك وتوحيد وتقوى وفجور ونفاق وإيمان وهذا من أعظم أصول أهل السنة ومسألة خروج أهل الكبائر من النار وتخليدهم فيها مبنية علي هذا الأصل

يعني لو واحد سيخلد في النار يبقي ليس فيه ذرة من إيمان لان هذا أصول نحن في الأصل نتكلم عن واقع وفطرة وأدلة الدليل النقلي رقم واحد ثم يأتي بعد ذلك دليل الفطرة والعقل فلما نتكلم عن أدلة النقل نرى أن أهل الكبائر يخرجون من النار بعد ما يتطهروا من ذنوبهم فابن يحتج علي هذا الأصل اجتماع الكفر والإيمان أو الشرك والتوحيد في قلب الشخص في جانب إيماني وجانب كفري أو شركي

٤ - أمراض القلب وشفاؤها لابن تيمية صـ٣٨

وههنا أصل آخر وهو أن الرجل قد يجتمع فيه كفر وإيمان وشرك وتوحيد وتقوى وفجور ونفاق وإيمان هذا من أعظم أصول أهل السنة وخالفهم فيه غيرهم من أهل البدع كالخوارج والمعتزلة والقدرية ومسألة خروج أهل الكبائر من النار وتخليدهم فيها مبنية على هذا الأصل[5]

﴿ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ (١٠٦) ﴾[6]

يبقي في إيمان وشرك

﴿ قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُمْ مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (١٤) ﴾[7]

فأثبت لهم إسلاما وطاعة لله ورسوله مع نفي الإيمان عنهم وهو الإيمان المطلق الذي يستحق اسمه بمطلقه

﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ (١٥) ﴾[8]

فلما يقول أنه مؤمن أي أنه كل مؤمن إيمان مطلق وهذا لم ينل به الظالم لنفسه

وهؤلاء ليسوا منافقين في اصح القولين بل هم مسلمون بما معهم من طاعة الله ورسوله وليسوا مؤمنين وإن كان معهم جزء من الإيمان أخرجهم من الكفار[9]

---

[5] - الصلاة وحكم تاركها - ابن قيم الجوزية ٧٨\١

[6] - يوسف

[7] - الحجرات

[8] - الحجرات

[9] - السابق

لسه فيه خصلة فلا أقدر أن أطلعه من الملة وهذا مثل في أناس كثير من عامة الناس أناس يشربوا خمرا وأعمال مسيئة ولكن لما يجئ إساءة للنبي أو واحد يطعن في شهادته أو أي شيء من هذا القبيل فيقوم غيرة علي دينه

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو ﷺ

أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ أَرْبَعٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ كَانَ مُنَافِقًا خَالِصًا وَمَنْ كَانَتْ فِيهِ خَصْلَةٌ مِنْهُنَّ كَانَتْ فِيهِ خَصْلَةٌ مِنْ النِّفَاقِ حَتَّى يَدَعَهَا إِذَا اؤْتُمِنَ خَانَ وَإِذَا حَدَّثَ كَذَبَ وَإِذَا عَاهَدَ غَدَرَ وَإِذَا خَاصَمَ فَجَرَ [10]

من كان معه إيمان حقيقي فمعه من الإيمان بقدر أعماله

يعني لو في الإنسان خصال من الإيمان أو خصال من الكفر أو خصال من الشرك فخصال الإيمان ستبين بالفعل في بدنه أعمال الإيمان وبن تيمية دائما يقول لو أن شخص ليس في جوارحه أي أعمال من الإيمان نهاية فليس في قلبه أي ذرة من الإيمان

من كان معه إيمان حقيقي فلا بد أن يكون معه من هذه الأعمال بقدر إيمانه وإن كان له ذنوب

عَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ ﷺ

---

[10] - رواه البخاري في كتاب الْإِيمَانِ بَاب عَلَامَةِ الْمُنَافِقِ

أَنَّ رَجُلًا عَلَى عَهْدِ النَّبِيِّ ﷺ كَانَ اسْمُهُ عَبْدَ اللَّهِ وَكَانَ يُلَقَّبُ حِمَارًا وَكَانَ يُضْحِكُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ وَكَانَ النَّبِيُّ ﷺ قَدْ جَلَدَهُ فِي الشَّرَابِ فَأُتِيَ بِهِ يَوْمًا فَأَمَرَ بِهِ فَجُلِدَ فَقَالَ رَجُلٌ مِنْ الْقَوْمِ اللَّهُمَّ الْعَنْهُ مَا أَكْثَرَ مَا يُؤْتَى بِهِ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ لَا تَلْعَنُوهُ فَوَاللَّهِ مَا عَلِمْتُ إِنَّهُ يُحِبُّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ [11]

والنص هنا صريح أنه يحب الله ورسوله مع أنه يشرب خمر

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ

أُتِيَ النَّبِيُّ ﷺ بِسَكْرَانَ فَأَمَرَ بِضَرْبِهِ فَمِنَّا مَنْ يَضْرِبُهُ بِيَدِهِ وَمِنَّا مَنْ يَضْرِبُهُ بِنَعْلِهِ وَمِنَّا مَنْ يَضْرِبُهُ بِثَوْبِهِ فَلَمَّا انْصَرَفَ قَالَ رَجُلٌ مَا لَهُ أَخْزَاهُ اللَّهُ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لَا تَكُونُوا عَوْنَ الشَّيْطَانِ عَلَى أَخِيكُمْ [12]

وهذا معناه أن الإنسان لابد أن يكون واسع الصدر ويستقبل الناس وينظر للناس نظرة حرص

فهذا بين أن المذنب بالشراب وغيره قد يكون محبا لله ورسوله وحب الله ورسوله أوثق عرى الإيمان كما أن العابد الزاهد قد يكون لما في قلبه من بدعة ونفاق مسخوطا عند الله ﷻ ورسوله ﷺ من ذلك الوجه البدعي أو من هذا النفاق القلبي

يبقي عارف ومبتدع وهذا كثير في العارفين

عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الخدري رضي الله عنه قَالَ

[11] - رواه البخاري في كتاب الحدود بَاب مَا يُكْرَهُ مِنْ لَعْنِ شَارِبِ الْخَمْرِ وَإِنَّهُ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْ الْمِلَّةِ ٦\٢٤٨٩(٦٣٩٨)
[12] - السابق (٦٣٩٩)

بَيْنَا النَّبِيُّ ﷺ يَقْسِمُ جَاءَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ ذِي الْخُوَيْصِرَةِ التَّمِيمِيُّ فَقَالَ اعْدِلْ يَا رَسُولَ اللَّهِ فَقَالَ وَيْلَكَ وَمَنْ يَعْدِلُ إِذَا لَمْ أَعْدِلْ قَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ دَعْنِي أَضْرِبْ عُنُقَهُ قَالَ دَعْهُ فَإِنَّ لَهُ أَصْحَابًا يَحْقِرُ أَحَدُكُمْ صَلَاتَهُ مَعَ صَلَاتِهِ وَصِيَامَهُ مَعَ صِيَامِهِ يَمْرُقُونَ مِنْ الدِّينِ كَمَا يَمْرُقُ السَّهْمُ مِنْ الرَّمِيَّةِ يُنْظَرُ فِي قُذَذِهِ فَلَا يُوجَدُ فِيهِ شَيْءٌ ثُمَّ يُنْظَرُ فِي نَصْلِهِ فَلَا يُوجَدُ فِيهِ شَيْءٌ ثُمَّ يُنْظَرُ فِي رِصَافِهِ فَلَا يُوجَدُ فِيهِ شَيْءٌ ثُمَّ يُنْظَرُ فِي نَضِيِّهِ فَلَا يُوجَدُ فِيهِ شَيْءٌ قَدْ سَبَقَ الْفَرْثَ وَالدَّمَ آيَتُهُمْ رَجُلٌ إِحْدَى يَدَيْهِ أَوْ قَالَ ثَدْيَيْهِ مِثْلُ ثَدْيِ الْمَرْأَةِ أَوْ قَالَ مِثْلُ الْبَضْعَةِ تَدَرْدَرُ يَخْرُجُونَ عَلَى حِينِ فُرْقَةٍ مِنْ النَّاسِ قَالَ أَبُو سَعِيدٍ أَشْهَدُ سَمِعْتُ مِنْ النَّبِيِّ ﷺ وَأَشْهَدُ أَنَّ عَلِيًّا قَتَلَهُمْ وَأَنَا مَعَهُ جِيءَ بِالرَّجُلِ عَلَى النَّعْتِ الَّذِي نَعَتَهُ النَّبِيُّ ﷺ قَالَ فَنَزَلَتْ فِيهِ [13] [14]

﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِنْ لَمْ يُعْطَوْا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ (٥٨) ﴾

يَمْرُقُ السَّهْمُ مِنْ الرَّمِيَّةِ ننظر الي المثل الذي ضربه النبي السهم لما يصيب الفريسة يدخل داخلة المفترض لما السهم يطلع من الفريسة يطلع بشيء من الدم أو اللحم فالرسول يقول لا من أنهم ترى فيهم الخشوع

يُنْظَرُ فِي قُذَذِهِ فَلَا يُوجَدُ فِيهِ شَيْءٌ ينظر الي السهم فلا يجدوا فيه شيء

قَدْ سَبَقَ الْفَرْثَ وَالدَّمَ أي يخرج السهم من غير دم يتأثر به

عَنْ أَبِى سَعِيدٍ الْخُدْرِىِّ قَالَ

---

[13] - رواه البخاري في كِتَاب اسْتِتَابَةِ الْمُرْتَدِّينَ وَالْمُعَانِدِينَ ٦\٢٥٤٠ (٦٥٤٣)

[14] - التوبة

قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ« تَمْرُقُ مَارِقَةٌ عِنْدَ فُرْقَةٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ يَقْتُلُهَا أَوْلَى الطَّائِفَتَيْنِ بِالْحَقِّ » . [١٥]

قال بن القيم

إن أعمال القلوب ليست مرتبة كالمقامات في السير الحسي

المقامات في السير الحسي تشبه كسلالم أو منازل تعد بحيث لا يصل الي مكان معين إلا بعد يمر علي المنزل الذي قبله هذه اسمها منازل في السير الحسي بن القيم يقول ليس أعمال القلوب والمقامات بالشكل الحسي كدرجات سلالم

واعلم أن ترتيب هذه المقامات ليس باعتبار أن السالك يقطع المقام ويفارقه وينتقل إلى الثاني كمنازل السير الحسي هذا محال ألا ترى أن اليقظة معه في كل مقام لا تفارقه وكذلك البصيرة والإرادة والعزم وكذلك التوبة فإنها كما أنها من أول المقامات فهي آخرها أيضا بل هي في كل مقام مستصحبة ولهذا جعلها الله تعالى آخر مقامات خاصته فقال تعالى في غزوة تبوك وهي آخر الغزوات [١٦]

﴿ لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَحِيمٌ (١١٧) ﴾ [١٧]

---

[١٥] - رواه مسلم في كتاب الزكاة باب ذكر الخوارج وصفاتهم ٧٤٥\٢ (١٠٦٤)

[١٦] - مدارج السالكين - ابن قيم الجوزية ١٣٣\١

[١٧] - التوبة

فجعل التوبة أول أمرهم وآخره وقال في سورة أجل رسول الله التي هي آخر سورة أنزلت

﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ (١) وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا (٢) فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا (٣) ﴾[18]

عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أَنَّهَا قَالَتْ

كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يُكْثِرُ أَنْ يَقُولَ فِي رُكُوعِهِ وَسُجُودِهِ سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا وَبِحَمْدِكَ اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي يَتَأَوَّلُ الْقُرْآنَ

فالتوبة هي نهاية كل سالك وكل ولي لله وهي الغاية التي يجري إليها العارفون بالله وعبوديته وما ينبغي له

قال تعالى ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا (٧٢) لِيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا (٧٣) ﴾ فجعل سبحانه التوبة غاية كل مؤمن ومؤمنة[20] الإخلاص فهو حقيقة الإسلام إذ الإسلام هو الاستسلام لله لا لغيره كما قال تعالى ﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٢٩) ﴾[21]

---

١٨ - النصر
١٩ - رواه البخاري في كِتَاب الْأَذَانِ بَاب التَّسْبِيحِ وَالدُّعَاءِ فِي السُّجُودِ٣٠٨\١٣(٧٧٥)
٢٠ - الأحزاب
٢١ - الزمر

فمن لم يستسلم له فقد استكبر ومن استسلم لله ولغيره فقد أشرك وكل من الكبر والشرك ضد الإسلام والإسلام ضد الشرك والكبر وذلك في القرآن كثير ولهذا كان الإسلام شهادة أن لا إله إلا الله وهي متضمنة عبادة الله وحده وترك عبادة ما سواه وهو الإسلام العام الذي لا يقبل الله من أحد من الأولين والآخرين دينا سواه لذلك قال الله تعالى

﴿ وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٨٥) ﴾ [٢] وقال الله تعالى

﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١٨) إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَمَنْ يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ (١٩) ﴾ [٣] [٢]

وقال الله تعالى

﴿ هُوَ الْحَيُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٦٥) ﴾ [٤]

وقال الله تعالى

﴿ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ (٥) ﴾

---

[٢٢] - ال عمران

[٢٣] -ال عمران

[٢٤] - غافر

[٢٥] - البينة

وآيات كثيرة تدل علي أن الإخلاص لازم لجميع أعمال القلوب والجوارح ولا يصح عمل إلا به وليس في مقام من المقامات في أعمال القلوب ولا قول اللسان ولا حركة من الحركات ولا سكنة من السكانات الا بالإخلاص وكذلك الصدق فالصوفية لا يتكلموا عن الصدق كمقام من المقامات العابدين والصدق لازم للكل والنبي لما

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ ﷺ

عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ إِنَّ الصِّدْقَ يَهْدِي إِلَى الْبِرِّ وَإِنَّ الْبِرَّ يَهْدِي إِلَى الْجَنَّةِ وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَصْدُقُ حَتَّى يَكُونَ صِدِّيقًا وَإِنَّ الْكَذِبَ يَهْدِي إِلَى الْفُجُورِ وَإِنَّ الْفُجُورَ يَهْدِي إِلَى النَّارِ وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَكْذِبُ حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللَّهِ كَذَّابًا

والبر وصف الابرار قال الله تعالى

﴿ إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ (٢٢) ﴾ ٧ ٢

والأبرار إما أن يكونون من المقتصدين وإما أن يكونون من المقربين بل قال إن الصدق والإخلاص هما تحقيق الاسلام والإيمان لماذا قال لان المظهرين الي الاسلام ينقسمون الي قسمين الي مؤمن ومنافق فالفارق بين المؤمن والمنافق الصدق قال الله تعالى

---

[٢٦] - راوه البخاري (٦٠٧٤) ومسلم (٦٨٠٣)

[٢٧] - المطففين

﴿ قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِن تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (١٤) إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ (١٥) ﴾ [28]

وكذلك وصف الصادقين في دعوي البر الذي هو جماع الدين في قوله تعالى

﴿ لَّيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ (١٧٧) ﴾ [29]

وأما المنافقون فوصفهم بالكذب في آيات متعددة

﴿ إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ (١) ﴾

إذن مسألة الصدق والإخلاص يكون مع الشخص علي الدوام فهذا هو الصحيح أما أن يكون الإنسان مفارق للصدق والإخلاص فهذا مستحيل حتى يقولا بن تيمية وبن القيم بأن الصدق ليس في تصديق الخبر فقط بل في تصديق الخبر وتنفيذ الأمر وممن ينبغي أن يعرف أن الصدق والتصديق يكون في الأقوال والأعمال

---

[28] - الحجرات
[29] - البقرة
[30] - المنافقون

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ

أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ، قَالَ: "لِكُلِّ بَنِي آدَمَ حَظٌّ مِنَ الزِّنَا، فَالْعَيْنَانِ تَزْنِيَانِ وَزِنَاهُمَا النَّظَرُ، وَالْيَدَانِ تَزْنِيَانِ وَزِنَاهُمَا الْبَطْشُ، وَالرِّجْلَانِ تَزْنِيَانِ وَزِنَاهُمَا الْمَشْيُ، وَالْفَمُ يَزْنِي وَزِنَاهُ الْقُبَلُ، وَالْقَلْبُ يَهْوَى وَيَتَمَنَّى، وَالْفَرْجُ يُصَدِّقُ ذَلِكَ، أَوْ يُكَذِّبُهُ" ٣ ١

فالصدق موجود في العمل كما أنه موجود في القلب ويقال حملوا علي العدو حملة صادقة حتى أن الصدق سمة موجود في المسلم وهو سبب في النجاة

سأل أحداً بعدها.

وخطب في يوم جمعة فأطال الخطبة، فقام إليه رجل فقال: إن الوقت لا ينتظرك والرب لا يعذرك، فأمر به إلى الحبس، فأتاه آل الرجل فقالوا: إنه مجنون، فقال: إن أقر على نفسه بما ذكرتم خليت سبيله، فقال الرجل: لا والله لا أزعم أنه ابتلاني وقد عافاني.

عَنِ الشَّعْبِيِّ، أَنَّ بِلَالاً خَطَبَ عَلَى أَخِيهِ إِلَى أَهْلِ بَيْتٍ مِنَ الْعَرَبِ، فَقَالَ: أَنَا بِلَالٌ وَهَذَا أَخِي، كُنَّا عَبْدَيْنِ فَأَعْتَقَنَا اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ، وَكُنَّا ضَالَّيْنِ فَهَدَانَا اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ.

إِنْ أَنْكَحْتُمُونَا فَالْحَمْدُ لِلَّهِ، وَإِنْ رَدَدْتُمُونَا فَاللَّهُ أَكْبَرُ فأقبل بعضهم علي بعض فقالوا بلال ممن عرفتم سابقته وعلمتم له مكانته من رسول الله فزوجوا أخاه فزوجوه فلما انصرفوا قال له أخوه يغفر الله لك يا بلال أما كنت تذكر

[٣١] - السنن الكبرى للبيهقي(١٣٨٩٤) إسناده صحيح على شرط مسلم.

سوابقنا ومشاهدنا مع رسول الله ونترك ما عدا ذلك فقال مه يا أخي إنما صدقت فأنكحك الصدق

يعني سبب صدقك وافقوا علي الزواج

أعمال القلوب كلها مأمول بها في حق الخاصة والعامة

فليس فيها تفرقة فلا يأتي أحد ويقول هذا الرجل مستثني من أعمال القلوب كما تفعل الصوفية يقولون مثلا

رياء العارفين أفضل من إخلاص العابدين والمريدين وهذا خطا لان الإخلاص واجب علي المريد والعارف والعابد

عن النُّعْمَانَ بْنَ بَشِيرٍ ﷺ يَقُولُ

سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ الْحَلَالُ بَيِّنٌ وَالْحَرَامُ بَيِّنٌ وَبَيْنَهُمَا مُشَبَّهَاتٌ لَا يَعْلَمُهَا كَثِيرٌ مِنْ النَّاسِ فَمَنْ اتَّقَى الْمُشَبَّهَاتِ اسْتَبْرَأَ لِدِينِهِ وَعِرْضِهِ وَمَنْ وَقَعَ فِي الشُّبُهَاتِ كَرَاعٍ يَرْعَى حَوْلَ الْحِمَى يُوشِكُ أَنْ يُوَاقِعَهُ أَلَا وَإِنَّ لِكُلِّ مَلِكٍ حِمًى أَلَا إِنَّ حِمَى اللَّهِ فِي أَرْضِهِ مَحَارِمُهُ أَلَا وَإِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ أَلَا وَهِيَ الْقَلْبُ [٣٢]

[٣٢] - البخاري (٣٨)

وهذه الأعمال الباطنة كمحبة الله والإخلاص له والتوكل عليه والرضا عنه ونحو ذلك كلها مأمور بها في حق الخاصة والعامة لا يكون تركها محمودا في حال واحد وإن ارتقى مقامه وأما الحزن فلم يأمر الله به ولا رسوله بل قد نهى عنه في مواضع وإن تعلق أمر الدين به كقوله تعالى

﴿ وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (١٣٩) ﴾ [33]

لكن المحبة والاخلاص والصدق أمر بها لأنها كلها أعمال تؤيد إلي خير إنما الحزن ليس فيه خير

﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ (١٢٦) وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ (١٢٧) إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوا وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ (١٢٨) ﴾ [34]

قال الله تعالى

﴿ مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ (٢٢) لِّكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ (٢٣) ﴾ [35]

وأمثال ذلك كثيرة وذلك أنه لا يجلب منفعة ولا يدفع مضرة ولا فائدة فيه وما لا فائدة فيه لا يأمر الله به نعم لا يأثم صاحبه إذا لم يقترن بحزنه محرم كما يحزن على المصائب

---

[33] - آل عمران

[34] - النحل

[35] - الحديد

عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رضي الله عنه قَالَ

دَخَلْنَا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ عَلَى أَبِي سَيْفٍ الْقَيْنِ وَكَانَ ظِئْرًا لِإِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَام فَأَخَذَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِبْرَاهِيمَ فَقَبَّلَهُ وَشَمَّهُ ثُمَّ دَخَلْنَا عَلَيْهِ بَعْدَ ذَلِكَ وَإِبْرَاهِيمُ يَجُودُ بِنَفْسِهِ فَجَعَلَتْ عَيْنَا رَسُولِ اللَّهِ ﷺ تَذْرِفَانِ فَقَالَ لَهُ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ رضي الله عنه وَأَنْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ فَقَالَ يَا ابْنَ عَوْفٍ إِنَّهَا رَحْمَةٌ ثُمَّ أَتْبَعَهَا بِأُخْرَى فَقَالَ ﷺ إِنَّ الْعَيْنَ تَدْمَعُ وَالْقَلْبَ يَحْزَنُ وَلَا نَقُولُ إِلَّا مَا يَرْضَى رَبُّنَا وَإِنَّا بِفِرَاقِكَ يَا إِبْرَاهِيمُ لَمَحْزُونُونَ [٦]

هذا حزن مشروع ولكن ما أمر الله به فالله لم يأمر بالحزن ولكن أمر بأعمال القلوب التي تؤيد إلي نتيجة كالإخلاص والصدق صحيح أن القلب يحزن لأنه متعلق بدنيا

وقد يقترن بالحزن ما يثاب صاحبه عليه ويحمد عليه ويكون محمودا من تلك الجهة لا من جهة الحزن كالحزين على مصيبة في دينه وعلى مصائب المسلمين عموما فهذا يثاب على ما في قلبه من حب الخير وبغض الشر وتوابع ذلك ولكن الحزن على ذلك إذا أفضى إلى ترك مأمور من الصبر والجهاد وجلب منفعة ودفع مضرة

أي أن يقال أن واحد منشغل في صومعته وليس له في الجهاد كان أيام بن تيمية وقت التتار كان شيخ الطريقة يقال عليه هذا عارف وهو يحارب التتار وهو في مكانه وهذا بالفعل خطا لأنه لا يكون سبب لعيش ولا لطاعة الله بل لابد إذا جاء الجهاد أن يجاهد وهم لا يريدون هذا ولذلك أنشأ أغلب التراث الصوفي المنحرف الذي يدعوا

---

٣٦ - البخاري (٥٨٩)

إلي ذلك وأول ما فعلوه في لبنان فجميع المكتبات الفخمة في لبنان أنشأها المستشرقون علشان يحقق كلام بن عربي وكلام الصوفية وينشره في الأمة العربية وهذا الذي حدث بالفعل فانتشر فكر الصوفية ووقفوا مع الصوفية وجميع الأفكار الهدامة هم الذي أنشاها وهذا فكر وحدة الوجود أن كل إخواني وكل الناس أحبهم ويحبوني وليس في ولاء ولا براء ولا كفر ولا إيمان عندهم يقولون عن هذا هو كلام المبتدئين إنما كلام العارفين المحققين هو المطلوب عندهم

وأما إن أفضى إلى ضعف القلب واشتغاله به عن فعل ما أمر الله ورسوله به كان مذموما عليه من تلك الجهة وإن كان محمودا من جهة أخرى وأما المحبة لله والتوكل والإخلاص له ونحو ذلك فهذه كلها خير محض وهي حسنة محبوبة في حق كل النبيين والصديقين والشهداء والصالحين ومن قال إن هذه المقامات تكون للعامة دون الخاصة فقد غلط في ذلك إن أراد خروج الخاصة عنها فإن هذه لا يخرج عنها مؤمن قط وإنما يخرج عنها كافر ومنافق وهذه المقامات ينقسم الناس فيها إلى خصوص وعموم فللخاصة خاصها وللعامة عامها

ترتيب المقامات ترتيب المشروط المتوقف علي شرطه

هو يقصد أنه يوجد أعمال من أعمال القلوب لا تحدث إلا بوجود واحد معه ومتوقف عليه يعني علي سبيل المثال الرضا فلا يمكن أن يوصف واحد بالرضا إلا بعد أن يكون صا بر فكيف يكون راضي بالمقدر وهو لا يصبر عليه

إنما هذا الترتيب ترتيب المشروط المتوقف على شرطه المصاحب له

ومثال ذلك أن الرضا مترتب على الصبر لتوقف الرضا عليه واستحالة ثبوته بدونه فإذا قيل إن مقام الرضا أو حاله على الخلاف بينهم هل هو مقام أو حال بعد مقام الصبر لا يعني به أنه يفارق الصبر وينتقل إلى الرضا وإنما يعني أنه لا يحصل له مقام الرضا حتى يتقدم له قبله مقام الصبر فافهم هذا الترتيب في مقامات العبودية

وإذا كان كذلك علمت أن القصد والعزم متقدم على سائر المنازل فلا وجه لتأخيره

لأنه يري الشيخ الهروي يؤخر مقامات ينبغي أنه يقدمها لأنها لازمة فابن القيم لا يعجبه التقسيم

وعلمت بذلك أن المحاسبة متقدمة على التوبة بالرتبة أيضا فإنه إذا حاسب العبد نفسه خرج مما عليه وهي حقيقة التوبة وأن منزلة التوكل قبل منزلة الإنابة لأنه يتوكل في حصولها فالتوكل وسيلة والإنابة غاية

فهو أتي بها من حديث النبي ﷺ

اللَّهُمَّ لَكَ أَسْلَمْتُ وَبِكَ آمَنْتُ وَعَلَيْكَ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْكَ أَنَبْتُ

فالرسول قدم التوكل علي الإنابة

وأن مقام التوحيد أولى المقامات أن يبدأ به كما أنه أول دعوة

والشيخ الهروي وضع مقام التوحيد آخر المقامات

عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنه

أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ لَمَّا بَعَثَ مُعَاذًا رضي الله عنه عَلَى الْيَمَنِ قَالَ إِنَّكَ تَقْدَمُ عَلَى قَوْمٍ أَهْلِ كِتَابٍ فَلْيَكُنْ أَوَّلَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ عِبَادَةُ اللَّهِ فَإِذَا عَرَفُوا اللَّهَ فَأَخْبِرْهُمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ فَرَضَ عَلَيْهِمْ خَمْسَ صَلَوَاتٍ فِي يَوْمِهِمْ وَلَيْلَتِهِمْ فَإِذَا فَعَلُوا فَأَخْبِرْهُمْ أَنَّ اللَّهَ فَرَضَ عَلَيْهِمْ زَكَاةً مِنْ أَمْوَالِهِمْ وَتُرَدُّ عَلَى فُقَرَائِهِمْ فَإِذَا أَطَاعُوا بِهَا فَخُذْ مِنْهُمْ وَتَوَقَّ كَرَائِمَ أَمْوَالِ النَّاسِ[37]

فالرسول ﷺ نص في الحديث أول ما يبدأ به هو التوحيد وليس في الآخر

لا يصح مقام من المقامات ولا حال من الأحوال إلا به فلا وجه لجعله آخر المقامات وهو مفتاح دعوة الرسل وأول فرض فرضه الله على العباد وما عدا هذا من الأقوال فخطأ كقول من يقول أول الفروض النظر أو القصد إلى النظر أو المعرفة أو الشك الذي يوجب النظر

وهذا كلام المتكلمين بأن أول شيء علي الإنسان ن يفعله هو أن يشك في ربنا

---

[37] - راوه البخاري (١٤٥٨) ومسلم (١٣٢)

الاختلاف في الصوفية في عدد المقامات وترتيبها

بن القيم يقول إن عندهم اختلاف كبير في المقامات والسبب في ذلك هو اختلاف حال وسلوك كل صوفي لان كل واحد عنده تجربة شخصية يعني قام من الليل يتعبد ويذكر الله فحس بمذاقات إيمانية فهو يقول إن أري أن الحب جاء في الوقت المعينة والخوف والرجاء جاء في الوقت الفلاني فيقدم طريق المحبة ولا طريق الخوف ولا القبض والبسط ولا الهيبة والأنس أو في المقامات التي وضعها فكل واحد يختلف عن الآخر فكل واحد يقول طريق غير الثاني فتحدث هذه الخلافات وهذه الخلافات دليل علي أن أعمال القلوب ليس لها ترتيب وسنعرف بعد قليل كيف يقدم بن القيم العبادة التي ذكرت في القران الكريم علي أعلي ما يمكن عندما قسم العابدين إلي عدت أنواع

اختلاف في بعض منازل السير هل هي من قسم الأحوال والفرق بينهما أن المقامات كسبية والأحوال وهبية

كسبية يعني بالمجاهدة والصلاة والصوم والزكاة وهذه الأفعال

وهبية كالخوف والرجاء والحالة الإيمانية واللذة الإيمانية

ومنهم من يقول الأحوال من نتائج المقامات والمقامات نتائج الأعمال فكل من كان أصلح عملا كان أعلى مقاما وكل من كان أعلى مقاما كان أعظم حالا فمما اختلفوا فيه الرضا هل هو حال أو مقام فيه خلاف بين الخراسانيين والعراقيين

ومن المقامات ما يكون جامعا لمقامين

ومنها ما يكون جامعا لأكثر من ذلك

ومنها ما يندرج فيه جميع المقامات فلا يستحق صاحبه اسمه إلا عند استجماع جميع المقامات فيه

فالتوبة جامعة لمقام المحاسبة ومقام الخوف لا يتصور وجودها بدونهما

والتوكل جامع لمقام التفويض والاستعانة والرضي لا يتصور وجوده بدونها

والرجاء جامع لمقام الخوف والإرادة

والخوف جامع لمقام الرجاء والإرادة

ومقامات لهم وتقسيمات تكلموا عنها بشكل موسع وأخذت مجال كبيرا من الكتب لما واحد يأتي يشرح كتاب الرسالة القشيرية أو كتاب اللمع أو كتاب التعرف لمذهب التصوف كل هذا مستمد من خلال كلامهم في المقامات والأحوال

ومقام الشكر جامع لجميع مقامات الإيمان ولذلك كان أرفعها وأعلاها وهو فوق الرضا وهو يتضمن الصبر من غير عكس ويتضمن التوكل والإنابة والحب والإخبات والخشوع والرجاء فجميع المقامات مندرجة فيه لا يستحق صاحبه اسمه على الإطلاق إلا باستجماع المقامات له ولهذا كان الإيمان نصفين نصف صبر ونصف شكر والصبر داخل في الشكر فرجع الإيمان كله شكرا والشاكرون هم أقل العباد كما قال تعالى

﴿ يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِنْ مَحَارِيبَ وَتَمَاثِيلَ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَاسِيَاتٍ اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ (١٣) ﴾[38]

وكل مقام من هذه المقامات فالسالكون بالنسبة إليه نوعان أبرار ومقربون فالأبرار في أذياله والمقربون في ذروة سنامه وهكذا مراتب الإيمان جميعها على أن الترتيب الذي يشير إليه كل مرتب للمنازل لا يخلو عن تحكم ودعوى من غير مطابقة[39]

يعني ليس لها حقيقة

التزام عقد الإسلام التزام بلوازمه الظاهرة والباطنة

طالما شهادة إن لا إله إلا الله وأن محمد رسول الله فلابد أن توفي بالظاهر والباطن فكل ما تكلم عنه إن شاء الله هو عبارة عن ظاهر وباطن الباطن متعلق بالقلب والروح والظاهر متعلق بالبدن في قول اللسان وعمل الجوارح والباطن علم القلب وعمل القلب فهذه تقسيمة رباعية وهذه التقسيمة ستفيدنا في قضية الإيمان والكفر وأركان الإيمان بشكر دقيق جيدا التقسيم الرباعية سببه أن الإيمان قول وعمل والقول والعمل يتعلق بالداخل والخارج بالظاهر والباطن قول وعمل في القلب وقول وعمل في الظاهر يعني البدن قول القلب وقول اللسان وعمل القلب وعمل الجوارح وهذه التقسيمة الرباعية موجود بكثرة في كلام السلف وكلام بن تيمية

---

٣٨ - سبأ

٣٩ - مدارج السالكين - ابن قيم الجوزية ١\١٣٧

وكلام بن القيم فإذا قلنا تصديقا بالجنان وقول باللسان وعمل بالجوارح والأركان هذا يعني أن التصديق يربط بين اثنين قول القلب وعمل القلب وعلي هذه التقسيم نجد أشياء كثيرة

كان الناس في الماضي قبل أن يظهر التصوف كان علماء السلف لما يتكلموا عن أعمال القلوب كانوا يتكلموا عن أعمال القلوب ويشرحها ليستفيد الناس من الحكمة وليس كمقامات ومنازل

فإنهم تكلموا على أعمال القلوب وعلى الأحوال كلاما مفصلا جامعا مبينا مطلقا من غير ترتيب ولا حصر للمقامات بعدد معلوم فإنهم كانوا أجل من هذا وهمهم أعلى وأشرف إنما هم حائمون على اقتباس الحكمة والمعرفة وطهارة القلوب وزكاة النفوس وتصحيح المعاملة ولهذا كلامهم قليل فيه البركة وكلام المتأخرين كثير طويل قليل البركة

فالأولى بنا أن نذكر منازل العبودية الواردة في القرآن والسنة ونشير إلى معرفة حدودها ومراتبها إذ معرفة ذلك من تمام معرفة حدود ما أنزل الله على رسوله وقد وصف الله تعالى من لم يعرفها بالجهل والنفاق فقال تعالى { الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٩٧) }.[٤]

فبمعرفة حدودها دراية والقيام بها رعاية يستكمل العبد الإيمان ويكون من أهل إياك نعبد وإياك نستعين

وبعد فلما كان كمال الإنسان إنما هو بالعلم النافع والعمل الصالح وهما الهدى ودين الحق وبتكميله لغيره في هذين الأمرين كما قال تعالى {والعصر إن

---

[٤] - التوبة

الإنسان لفي خسر إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر }[٤١]

أقسم سبحانه أن كل أحد خاسر إلا من كمل قوته العلمية بالإيمان وقوته العملية بالعمل الصالح وكمل غيره بالتوصية بالحق والصبر عليه فالحق هو الإيمان والعمل ولا يتمان إلا بالصبر عليهما والتواصي بهما كان حقيقا بالإنسان أن ينفق ساعات عمره بل أنفاسه فيما ينال به المطالب العالية ويخلص به من الخسران المبين وليس ذلك إلا بالإقبال على القرآن وتفهمه وتدبره[٤٢]

الفرق بين النعمة المطلقة ومطلق النعمة

النعمة المطلقة ومطلق النعمة والنعمة من جنس الإحسان، بل هي الإحسان. والرب تعالى إحسانه على البر والفاجر. والمؤمن والكافر هذا يسمي مطلق النعمة يعني تصل إلي الكل إنما النعمة المطلقة لا تأتي إلا للمؤمن ومطلق النعمة يكون للمؤمن والكافر وقال الله في خلقه

﴿ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ (٣٤) ﴾ [٤٣]

نعمة الله هنا عامة علي الكل

وقال تعالي

---

٤ - العصر

٤ - مدارج السالكين - ابن قيم الجوزية ١\١٣٩

٤ - إبراهيم

﴿ لِتَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ (١٣) وَإِنَّا إِلَى رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ (١٤) ﴾[٤]

فهذا يسمي مطلق النعمة للكل

إنما النعمة المطلق الكاملة إذا انعم علي عبد بالإيمان

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَنْ يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (١١) ﴾[٤]

وقال تعالي

﴿ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٥٣) ﴾[٤]

فلما يأتي الله أهل الإيمان النعمة ويتفرقوا يزيل الله النعمة عنهم وهذا الذي حدث في أغلب الدول في الأندلس ودولة العباس فلما اختلفوا فيما بينهم أزل الله هذه النعمة عنهم

﴿ قَالَ هَلْ أَنْتُمْ مُطَّلِعُونَ (٥٤) فَاطَّلَعَ فَرَآهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ (٥٥) قَالَ تَاللَّهِ إِنْ كِدْتَ لَتُرْدِينِ (٥٦) وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنْتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ (٥٧) ﴾[٤]

---

[٤] - الزخرف
[٤] - المائدة
[٤] - الأنفال
[٤] - الصافات

وهذه النعمة المطلقة لان العبد هنا في الجنة

وبدأ بن القيم أن يتكلموا علي إياك نعبد وإياك نستعين بأسلوب الحكماء المعتمد علي كلام رب العالمين

الله قرن العبادة بالاستعانة بس الشيء العجيب في إياك نعبد وإياك نستعين إن العبادة مقدمة علي بالاستعانة

العلة في تقديم العبادة علي بالاستعانة

قال ابن القيم وضع لها وجوه كثيرة جدا

١- تقديم الغايات على الوسائل إذ العبادة غاية العباد التي خلقوا لها والاستعانة وسيلة إليها

٢- ولأن إياك نعبد متعلق بألوهيته واسمه الله

الله ﷻ المألوه والمألوه يعني المعبود بحق

وإياك نستعين متعلق بربوبيته واسمه الرب

لأني استعين علي من يقدر علي أن يعطيني فوصف القدرة وإمكانية العطاء هو وصف الله يخلق ويدبر فاسم

الرب في سورة الفاتحة جاء بعد اسم الله فما يتعلق باسم الله فهي العبادة وما يتعلق باسم الرب الاستعانة والله

قدم ألوهيته علي ربوبيته

٣- إياك نعبد قسم الرب

يعني حق الله علي العبد بأن يعبده

وإياك نستعين قسم العبد

يعني ما يطلبه العبد من ربه جزاء لما فعلت

٤- العبادة المطلقة تتضمن الإستعانة من غير عكس فكل عابد لله عبودية تامة مستعين به ولا ينعكس لأن صاحب الأغراض والشهوات قد يستعين به على شهواته فكانت العبادة أكمل وأتم ولهذا

٥- العبادة حقه الذي أوجبه عليك والإستعانة طلب العون على العبادة وهو بيان صدقته التي تصدق بها عليك وأداء حقه أهم من التعرض لصدقته

٦-لأن إياك نعبد له وإياك نستعين به وماله مقدم على ما به لأن ماله متعلق بمحبته ورضاه وما به متعلق بمشيئته وما تعلق بمحبته أكمل مما تعلق بمجرد مشيئته فإن الكون كله متعلق بمشيئته والملائكة والشياطين والمؤمنون والكفار والطاعات والمعاصي والمتعلق بمحبته طاعاتهم وإيمانهم فالكفار أهل مشيئته والمؤمنون أهل محبته ولهذا لا يستقر في النار شيء لله أبدا وكل ما فيها فإنه به تعالى وبمشيئته

فهذه الأسرار يتبين بها حكمة تقديم إياك نعبد على إياك نستعين [٤٨]

يعني إياك نستعين طلب لفعل الله وفعل الله لا يكون إلا بمشيئته والمشيئة عام في الكافرين والمؤمنين

إياك نعبد متعلقة بالمحبة لان هنا في إرادة شرعية فالإرادة الكونية عام في الناس لكن الارادة الشرعية خاص بالمؤمنين فالأفضل أن تقدم العبادة علي الاستعانة

---

[٤٨] - مدارج السالكين - ابن قيم الجوزية ٧٦/١

الناس في العبادة والإستعانة أربعة أقسام

١- أجلها وأفضلها أهل العبادة والإستعانة بالله عليها فعبادة الله غاية مرادهم وطلبهم منه أن يعينهم عليها ويوفقهم للقيام بها ولهذا كان من أفضل ما يسأل الرب تبارك وتعالى الإعانة على مرضاته وهو الذي علمه النبي لحبه معاذ بن جبل رضي الله عنه فقال يا معاذ والله إني لأحبك فلا تنس أن تقول دبر كل صلاة اللهم أعني على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك

هو عبد وصلي وحقق إياك نعبد فلا ينسي العبد إن العبادة هذه يرجع فيها الفضل لله وإن يستعين بالله أن يستمر عليها

فأنفع الدعاء طلب العون على مرضاته وأفضل المواهب إسعافه بهذا المطلوب وجميع الأدعية المأثورة مدارها على هذا وعلى دفع ما يضاده وعلى تكميله وتيسير أسبابه فتأملها

٢- وهم المعرضون عن عبادته والإستعانة به فلا عبادة ولا إستعانة بل إن سأله أحدهم واستعان به فعلى حظوظه وشهواته لا على مرضاة ربه وحقوقه

يقول العبد مثلا خليلي فلان وفلان وهو قائم علي المعاصي هو وأولاده لا من أهل إياك نعبد ولا من أهل إياك نستعين

فإنه سبحانه يسأله من في السموات والأرض يسأله أولياؤه وأعداؤه ويمد هؤلاء وهؤلاء وأبغض خلقه عدوه إبليس ومع هذا فقد سأله حاجة فأعطاه إياها ومتعه بها ولكن لما لم تكن عونا له على مرضاته كانت زيادة له في

شقوته وبعده عن الله وطرده عنه وهكذا كل من استعان به على أمر وسأله إياه ولم يكن عونا على طاعته كان مبعدا له عن مرضاته قاطعا له عنه ولا بد

ليس معني أن الله يعطيه إياه أن الله وفقه للطاعة وإنما ابتلاه

وليتأمل العاقل هذا في نفسه وفي غيره وليعلم أن إجابة الله لسائليه ليست لكرامة السائل عليه بل يسأله عبده الحاجة فيقضيها له وفيها هلاكه وشقوته ويكون قضاؤها له من هوانه عليه وسقوطه من عينه ويكون منعه منها لكرامته عليه ومحبته له فيمنعه حماية وصيانة وحفظا لا بخلا وهذا إنما يفعله بعبده الذي يريد كرامته ومحبته ويعامله بلطفه فيظن بجهله أن الله لا يحبه ولا يكرمه ويراه يقضي حوائج غيره فيسيء ظنه بربه وهذا حشو قلبه ولا يشعر به والمعصوم من عصمه الله والإنسان على نفسه بصيرة وعلامة هذا حمله على الأقدار وعتابه الباطن لها كما قيل

وعاجز الرأي مضياع لفرصته ... حتى إذا فات أمر عاتب القدرا

فوالله لو كشف عن حاصله وسره لرأي هناك معاتبة القدر وإتهامه وأنه قد كان ينبغي أن يكون كذا وكذا ولكن ما حيلتي والأمر ليس إلي

والعاقل خصم نفسه والجاهل خصم أقدار ربه

فاحذر كل الحذر أن تسأله شيئا معينا خيرته وعاقبته مغيبة عنك وإذا لم تجد من سؤاله بدا فعلقه على شرط علمه تعالى فيه الخيرة وقدم بين يدي سؤالك الإستخارة ولا تكن استخارة باللسان بلا معرفة بل استخارة من لا علم

له بمصالحه ولا قدرة له عليها ولا اهتداء له إلى تفاصيلها ولا يملك لنفسه ضرا ولا نفعا بل إن وكل إلى نفسه هلك كل الهلاك وانفرط عليه أمره

٣- من له نوع عبادة بلا استعانة وهؤلاء

كالقدرية المعتزلة الذين قالوا إن الله قدر كل شيء وانتهي فاخرجوا أفعال العباد عن مقدور الله ﷻ وقالوا هي أسباب فقط تعبد تدخل الجنة لا تعبد تدخل النار بس أقدار الله قالوا الله ﷻ لا يقدر علي العاصي والعاصي هو الذي يخلق فعله فهولاء لهم عبادة وليس لهم استعانة

٤- وهو من شهد تفرد الله بالنفع والضر وأنه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن ولم يدر مع ما يحبه ويرضاه فتوكل عليه واستعان به على حظوظه وشهواته وأغراضه وطلبها منه وأنزلها به فقضيت له وأسعف بها سواء كانت أموالا أو رياسة أو جاها عند الخلق أو أحوالا من كشف وتأثير وقوة وتمكين ولكن لا عاقبة له فإنها من جنس الملك الظاهر والأموال لا تستلزم الإسلام فضلا عن الولاية والقرب من الله فإن الملك والجاه والمال والحال معطاة للبر والفاجر والمؤمن والكافر فمن استدل بشيء من ذلك على محبة الله لمن آتاه إياه ورضاه عنه وأنه من أوليائه المقربين فهو من أجهل الجاهلين وأبعدهم عن معرفة الله ومعرفة دينه والتمييز بين ما يحبه ويرضاه ويكرهه ويسخطه فالحال من الدنيا فهو كالملك والمال إن أعان صاحبه على طاعة الله ومرضاته وتنفيذ أوامره ألحقه بالملوك العادلين البررة وإلا فهو وبال على صاحبه ومبعد له عن الله وملحق له بالملوك الظلمة والأغنياء الفجرة [٤٩]

---

٤٩ - مدارج السالكين - ابن قيم الجوزية ١\٨٢

هولاء من أهل الاستعانة وليس من أهل العبادة الذين قالوا فيهم أن العبد يعبد ويعبد إلي أن يصل إلي درجة العارف ولو وصل إلي درجة العارف سقط عنه العبودية فيزنون وكثير من العارفين استحلوا الأعراض وفعلوا أفعال تحت مسمي هذا لا تلومه

لا يكون العبد متحققا بتوحيد العبودية إلا بأصلين عظيمين

١-الإخلاص

٢-المتابعة

والناس منقسمون بحسب هذين الأصلين أيضا إلى أربعة أقسام

١- أهل الإخلاص للمعبود والمتابعة وهم أهل إياك نعبد

٢- من لا إخلاص له ولا متابعة فليس عمله موافقا لشرع

كمن يمسك في الأمر ومهيمن علي منصب ديني وهو ليس عنده إخلاص ولا متابعة

وليس هو خالصا للمعبود كأعمال المتزينين للناس المرائين لهم بما لم يشرعه الله ورسوله وهؤلاء شرار الخلق وأمقتهم إلى الله عز و جل ولهم أوفر نصيب من قوله لا تحسبن الذين يفرحون بما أتوا ويحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا فلا تحسبنهم بمفازة من العذاب ولهم عذاب أليم يفرحون بما أتوا من البدعة والضلالة والشرك ويحبون أن يحمدوا باتباع السنة والإخلاص

وهذا الضرب يكثر فيمن انحرف من المنتسبين إلى العلم والفقر والعبادة عن الصراط المستقيم فإنهم يرتكبون البدع والضلالات والرياء والسمعة ويحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوه من الإتباع والإخلاص والعلم فهم أهل الغضب والضلال

٣- من هو مخلص في أعماله لكنها على غير متابعة الأمر

كجهال العباد والمنتسبين إلى طريق الزهد والفقر وكل من عبد الله بغير أمره واعتقد عبادته هذه قربة إلى الله فهذا حاله كمن يظن أن سماع المكاء والتصدية قربة وأن الخلوة التي يترك فيها الجمعة والجماعة قربة وأن مواصلة صوم النهار بالليل قربة وأن صيام يوم فطر الناس كلهم قربة وأمثال ذلك

٤- من أعماله على متابعة الأمر لكنها لغير الله

كطاعة المرائين وكالرجل يقاتل رياء وحمية وشجاعة ويحج ليقال ويقرأ القرآن ليقال فهؤلاء أعمالهم ظاهرها أعمال صالحة مأمور بها لكنها غير صالحة فلا تقبل { وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين}

فكل أحد لم يؤمر إلا بعبادة الله بما أمر والإخلاص له في العبادة وهم أهل إياك نعبد وإياك نستعين

أهل مقام إياك نعبد لهم في أفضل العبادة وأنفعها أربع طرق

أهل مقام إياك نعبد لهم في أفضل العبادة وأنفعها وأحقها بالإيثار والتخصيص أربع طرق فهم في ذلك أربعة أصناف

١- عندهم أنفع العبادات وأفضلها أشقها على النفوس وأصعبها

قالوا لأنه أبعد الأشياء عن هواها وهو حقيقة التعبد

قالوا والأجر على قدر المشقة ورووا حديثا لا أصل له أفضل الأعمال أحمرها أي أصعبها وأشقها

وهؤلاء هم أهل المجاهدات والجور على النفوس

فظهرت هنا أشياء أن شخص يقعد أربعين سنة من غير أن يأكل أو أن يشرب أو أن يضعوا العارف منهم في مكان بعيد ويرسلوا إليه قطعة عجوة في مقدار سم يأكل فيها عشرون سنة فابن القيد يقول هذه طائفة من الناس يرون هذه أفضل العبادة

٢- قالوا أفضل العبادات التجرد والزهد في الدنيا والتقلل منها غاية الإمكان واطراح الإهتمام بها وعدم الإكتراث بكل ما هو منها

ثم هؤلاء قسمان

فعوامهم ظنوا أن هذا غاية فشمروا إليه وعملوا عليه ودعوا الناس إليه وقالوا هو أفضل من درجة العلم والعبادة فرأوا الزهد في الدنيا غاية كل عبادة ورأسها

وخواصهم رأوا هذا مقصودا لغيره وأن المقصود به عكوف القلب على الله وجمع الهمة عليه وتفريغ القلب لمحبته والإنابة إليه والتوكل عليه والإشتغال بمرضاته فرأوا أن أفضل العبادات في الجمعية على الله ودوام ذكره بالقلب واللسان والإشتغال بمراقبته دون كل ما فيه تفريق للقلب وتشتيت له

ثم هؤلاء قسمان

فالعارفون المتبعون منهم إذا جاء الأمر والنهي بادروا إليه ولو فرقهم وأذهب جمعيتهم

والمنحرفون منهم يقولون المقصود من العبادة جمعية القلب على الله فإذا جاء ما يفرقه عن الله لم يلتفت إليه وربما يقول قائلهم

الجمع والفرق

يطالب بالأوراد من كان غافلا ... فكيف بقلب كل أوقاته ورد ثم هولاء أيضا قسمان

منهم من يترك الواجبات والفرائض لجمعيته

البدوي مثلا جلس علي السطح ثلاثون سنة ولم ينزل ولما نزل ليصلي مع الناس بال عليهم والذي وقع عليه بعض البول فهو فرح بما نال وقال بركاتك يا شيخ وهذه أخباره التي وصلتنا أنه جالس علي السطح وهذه الطريقة السطحية وواضع اللثام علي وجه ويقولون أنه قطب والنظرة من القطب تعني الموت لماذا لأنه وصل إلي درجة فيها حلول واتحاد وموسي لما نظر إلي الجبل قال الله له

﴿ وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَنْ تَرَانِي وَلَكِنِ انْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ (١٤٣) ﴾ [٥]

لذلك هو مغطي وجه

عَنْ أَبِي مُوسَى قَالَ قَامَ فِينَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِخَمْسِ كَلِمَاتٍ فَقَالَ « إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ لاَ يَنَامُ وَلاَ يَنْبَغِى لَهُ أَنْ يَنَامَ يَخْفِضُ الْقِسْطَ وَيَرْفَعُهُ يُرْفَعُ إِلَيْهِ عَمَلُ اللَّيْلِ قَبْلَ عَمَلِ النَّهَارِ وَعَمَلُ النَّهَارِ قَبْلَ عَمَلِ اللَّيْلِ حِجَابُهُ النُّورُ - وَفِى رِوَايَةِ أَبِى بَكْرٍ النَّارُ - لَوْ كَشَفَهُ لأَحْرَقَتْ سُبُحَاتُ وَجْهِهِ مَا انْتَهَى إِلَيْهِ بَصَرُهُ مِنْ خَلْقِهِ » .

وَفِى رِوَايَةِ أَبِى بَكْرٍ عَنِ الأَعْمَشِ وَلَمْ يَقُلْ حَدَّثَنَا . [٥]

ومنهم من يقوم بها ويترك السنن والنوافل وتعلم العلم النافع لجمعيته

وسأل بعض هؤلاء شيخا عارفا فقال إذا أذن المؤذن وأنا في جمعيتي على الله فإن قمت وخرجت تفرقت وإن بقيت على حالي بقيت على جمعيتي فما الأفضل في حقي

٣- رأوا أن أنفع العبادات وأفضلها ما كان فيه نفع متعد فرأوه أفضل من ذي النفع القاصر فرأوا خدمة الفقراء والإشتغال بمصالح الناس وقضاء

---

٥ - الأعراف

٥ - رواه مسلم (٤٦٣)

حوائجهم ومساعدتهم بالمال والجاه والنفع أفضل فتصدوا له وعملوا عليه

واحتجوا بقول النبي الخلق كلهم عيال الله وأحبهم إليه أنفعهم لعياله

واحتجوا بأن عمل العابد قاصر على نفسه وعمل النفاع متعد إلى الغير وأين أحدهما من الآخر

قالوا ولهذا كان فضل العالم على العابد كفضل القمر على سائر الكواكب

قالوا وقد قال رسول الله ﷺ لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه لأن يهدي الله بك رجلا واحدا خير لك من حمر النعم

وهذا التفضيل إنما هو للنفع المتعدي واحتجوا بقوله من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من اتبعه من غير أن ينقص من أجورهم شيء

واحتجوا بقوله إن الله وملائكته يصلون على معلمي الناس الخير

وبقوله إن العالم ليستغفر له من في السموات ومن في الأرض حتى الحيتان في البحر والنملة في جحرها واحتجوا بأن صاحب العبادة إذا مات انقطع عمله وصاحب النفع لا ينقطع عمله ما دام نفعه الذي نسب إليه

٤- قالوا إن أفضل العبادة العمل على مرضاة الرب في كل وقت بما هو مقتضى ذلك الوقت ووظيفته فأفضل العبادات في وقت الجهاد الجهاد وإن آل إلى ترك الأوراد من صلاة الليل وصيام النهار بل ومن ترك إتمام صلاة الفرض كما في حالة الأمن

والأفضل في وقت حضور الضيف مثلا القيام بحقه والإشتغال به عن الورد المستحب وكذلك في أداء حق الزوجة والأهل

والأفضل في أوقات السحر والإشتغال بالصلاة والقرآن والدعاء والذكر والاستغفار

والأفضل في وقت استرشاد الطالب وتعليم الجاهل الإقبال على تعليمه والإشتغال به

والأفضل في أوقات الأذان ترك ما هو فيه من ورده والإشتغال بإجابة المؤذن والأفضل في أوقات الصلوات الخمس الجد والنصح في إيقاعها على أكمل الوجوه والمبادرة إليها في أول الوقت والخروج إلى الجامع وإن بعد كان أفضل

والأفضل في أوقات ضرورة المحتاج إلى المساعدة بالجاه أو البدن أو المال الاشتغال بمساعدته وإغاثة لهفته وإيثار ذلك على أورادك وخلوتك

والأفضل في وقت قراءة القرآن جمعية القلب والهمة على تدبره وتفهمه حتى كأن الله تعالى يخاطبك به فتجمع قلبك على فهمه وتدبره والعزم على تنفيذ أوامره أعظم من جمعية قلب من جاءه كتاب من السلطان على ذلك

والأفضل في وقت الوقوف بعرفة الاجتهاد في التضرع والدعاء والذكر دون الصوم المضعف عن ذلك والأفضل في أيام عشر ذي الحجة الإكثار من التعبد لا سيما التكبير والتهليل والتحميد فهو أفضل من الجهاد غير المتعين

والأفضل في العشر الأخير من رمضان لزوم المسجد فيه والخلوة والاعتكاف دون التصدي لمخالطة الناس والإشتغال بهم حتى إنه أفضل من الإقبال على تعليمهم العلم وإقرائهم القرآن عند كثير من العلماء

والأفضل في وقت مرض أخيك المسلم أو موته عيادته وحضور جنازته وتشييعه وتقديم ذلك على خلوتك وجمعيتك

والأفضل في وقت نزول النوازل وأذاة الناس لك أداء واجب الصبر مع خلطتك بهم دون الهرب منهم فإن المؤمن الذي يخالط الناس ليصبر على أذاهم أفضل من الذي لا يخالطهم ولا يؤذونه

وهؤلاء هم أهل التعبد المطلق والأصناف قبلهم أهل التعبد المقيد فمتى خرج أحدهم عن النوع الذي تعلق به من العبادة وفارقه يرى نفسه كأنه قد نقص وترك عبادته فهو يعبد الله على وجه واحد وصاحب التعبد المطلق ليس له غرض في تعبد بعينه يؤثره على غيره بل غرضه تتبع مرضاة الله تعالى أين كانت

فمدار تعبده عليها فهو لا يزال متنقلا في منازل العبودية كلما رفعت له منزلة[٥٢]

تنوعت أحكام العبودية وتنوعت قضايا الابتلاء قال الله تعالى

﴿ الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ (٢) ﴾ [٣]

وليس علشان يبقي طريق العابد ثم يطلع درجة إلي المريد ثم يطلع درجة إلي أن يبقي عارف

هذا هو المتحقق بإياك نعبد وإياك نستعين حقا القائم بهما صدقا ملبسه ما تهيأ ومأكله ما تيسر واشتغاله بما أمر الله به في كل وقت بوقته ومجلسه حيث انتهي به المكان ووجده خاليا لا تملكه إشارة ولا يتعبده قيد ولا يستولي عليه رسم حر مجرد دائر مع الأمر حيث استقلت مضاربه يأنس به كل محق ويتوحش من كل مبطل

---

٥ - مدارج السالكين - ابن قيم الجوزية ١\٨٩

٥ - الملك

كالغيث حيث وقع نفع وكالنخلة لا يسقط ورقها وكلها منفعة حتى شوكها وهو موضع الغلظة من علي المخالفين لأمر الله والغضب إذا انتهكت محارم الله فهو لله وبالله ومع الله

مبني توحيد العبودية والإيمان القول والعمل ظاهرا وباطنا

قول اللسان والقلب

وعمل القلب والجوارح

بقلم الباحث / محمد حمدى سيد صالح

(أبو عُمير محمد الحلوانى)